The Verses of Depletion in the Glorious Qur'an
A Linguistic Study

Asst. Prof. Hamasat Muhammad Hassan Jawad (Ph.D)
Al-Mustansiriya University - College of Education
Department of Arabic Language
Email : hamasat.ali.ha@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.31973/aj.v2i146.4172

Abstract

In Arabic, some verbs are similar in their letters number and form, but differ in one letter, so this simple difference can lead to a difference in the pronunciation and meaning. There are many instances in Arabic language, for example our saying (Al-Nafad and Al-Nafath) and the two verbs are mentioned in four verses. When examining the verses of "Al-Nafad", it has been found that they contain phonetic, morphological, syntactic and semantic phenomena that were combined together to produce such great Quranic verses. The researcher explained the meaning of Al-Nafad, and the difference between Al-Nafad and Al-nafath in terms of their linguistic use. The first section was about the phonetic level, the second section was devoted to the morphological level, and the third section was about the structural level.

Keywords: depletion - access - language - morphology - semantics

آياتُ النَّفادِ فِي القُرآنِ الكريمِ دِرَاسَةٌ لُغويَّةٌ

أ.م.د. همسات محمد حسن جواد
الجامعة المستنصرية – كلية التربية
قسم اللغة العربية

(مُلَخَّصُ البَحث)

ترد في اللغة العربية بعض الأفعال المتشابهة في عدد حروفها وشكلها، لكنها تختلف في حرف واحد، فيؤدي هذا الاختلاف البسيط إلى اختلاف في نطق الفعل ومن ثم اختلاف معناه، وهذا كثير في لغتنا العربية المعطاء، من ذلك قولنا (نفِد ونفَذ) وقد ورد الفعلان في أربع آيات محكمات وعند النظر في آيات النّفاد، وجدت أنّ فيها ظواهر صوتية وصرفية ونحوية ودلالية، اجتمعت فيما بينها لبناء هذه النصوص القرآنية العظيمة؛ إذ لا بدّ من توجيه الأنظار إليها، وبيان عظمة كلام الله Y. قُسِّمَ البحث بحسب هذه الظواهر إلى ثلاثة مباحث، يسبقها تمهيدٌ بيّنتُ فيه، معنى النّفاد في اللغة، والفرق بين النّفاد والنّفاذ في الاستعمال اللغوي. المبحث الأول كان في المستوى الصوتي، المبحث الثاني خصصته للمستوى الصرفي، والمبحث الثالث جعلته للمستوى التركيبي.

الكلمات المفتاحية: النفاد – النفاذ – اللغة – الصرف – الدلالة

(بسم الله الرحمن الرحيم)

المُقدِّمة: الحمد لله رب العالمين، وبه نستعين، والصّلاةُ والسّلام على خاتم النبيين، والهادي إلى يوم الدين، وآله الطّيّبين الطّاهرين، وصحبه المنتجبين.

أمّا بعدُ...

كثيرا ما كنت أتطلّع للبحث في كتاب الله العظيم؛ لأتدبّر آياته الكريمة، وأستنير بنوره البهي، وأنهل من فيض عطائه الغزير، فقد وفّقني الله ٧، بالإنتباه إلى لفظة (النَّفاد) في القرآن الكريم؛ لتكون عنوانا لبحثي، فكثيرا ما يُخطئ فيها الناطقون، إذ لا يفرقون بينها وبين لفظة النفاذ بالذال، فوجدتها في أربع آيات بيّنات عطرة هي: قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} الكهف/١٠٩ وقوله تعالى :{وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} لقمان/٢٧ وقوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ ۖ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} النحل/٩٦ وقوله تعالى} :إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} ص/٥٤. وعند النظر في آيات النّفاد، وجدت أنّ فيها ظواهر صوتية وصرفية ونحوية ودلالية، اجتمعت فيما بينها لبناء هذه النصوص القرآنية العظيمة؛ إذ لا بدّ من توجيه الأنظار إليها، وبيان عظمة كلام الله .

قُسِّمَ البحث بحسب هذه الظواهر إلى ثلاثة مباحث، يسبقها تمهيدٌ بيّنتُ فيه، معنى النّفاد في اللغة، والفرق بين النّفاد والنّفاذ في الاستعمال اللغوي. المبحث الأول كان في المستوى الصوتي، المبحث الثاني خصصته للمستوى الصرفي، والمبحث الثالث جعلته للمستوى التركيبي. أسأل الله أن يوفقني، ويجعل عملي هذا خالصا لوجهه الكريم، والله من وراء القصد.

التمهيد:

ترد في اللغة العربية بعض الأفعال المتشابهة في عدد حروفها وشكلها، لكنها تختلف في حرف واحد، فيؤدي هذا الاختلاف البسيط إلى اختلاف في نطق الفعل ومن ثم اختلاف معناه، وهذا كثير في لغتنا العربية المعطاء، من ذلك قولنا: راح/ زاح، غلَّق/علَّق، شدَّ/سدَّ وغيرها كثير جدا، فلولا تنقيط الحرف لما ميّزنا بين الراء والزاي، ولا بين العين والغين. والفعلان (نفِد ونفَذ) من بين هذه الأفعال المتشابهة. فالفعل (نَفِد) الذي يخطئ فيه الكثيرون، فينطقونه بالذال بدلا من الدال، يختلف اختلافا كبيرا عن الفعل (نَفَد)؛ وقد أورده الأستاذ محمّد العدناني ضمن الأخطاء الشائعة (العدناني، ١٩٨٥م، صفحة ٢٥١)، لذا سنبيّن الفرق بينهما من الجانب اللغوي، فما هو النَّفاد في الاستعمال اللغوي؟ قال صاحب المقاييس أن "

النون والفاء والدال: أصل صحيح يدل على انقطاع شيء وفنائه. ونَفِد الشيء يَنْفَدُ نَفَادا: وأنفَدوا: فَنِى زادُهم. ويقال للخصم مُنافِد، وذلك أن يتخاصمَ الرجلان يريد كلٌّ منهما إنفادَ حجَّةِ صاحبه" (ابن فارس (ت٣٩٥هـ)، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، صفحة ٤٥٨/٥) وزاد الزَّبيدي أنّ نَفِد، بمعنى استنفد، وتأتي بمعنى السعة، وبمعنى التنحي " نَفِد الشيء كسَمِع يَنْفَد نَفادا ونَفَدا محرّكة فني وذهب... وأنْفَده هو: أفناه كاستنفده... ويقال: فيه منتفدٌ عن غيره كقولك (مندوحة) وسِعة... ويقال قعد منتفِدا... أي متنحّيا... واستنفد وسْعَه: استفرغه" (الزبيدي(١٢٠٥هـ)، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، صفحة ٢٢٩/٩)

إذن فالنَّفاد بالدال، وهو حرف يخرج من رأس اللسان مع الثنايا العليا، مجهور شديد، من الفعل نَفِد يَنْفَد نَفَدا ونَفادا، وأصله فناء الشيء وانقطاعه، وقد يخرج إلى دلالات أخرى، منها السّعة والتنحي، ولكن ما ورد في القرآن الكريم هو معنى الانقطاع والفناء فقط.

أما النفاذ بالذال، وهو يخرج من رأس اللسان مع الثنايا العليا، مجهور رخو، فهو من الفعل نَفَذ يَنْفُذ نَفَاذا ونُفوذا " أصلٌ صحيح يدلُ على معناه في أمرٍ وغيره. ونَفَذ السّهمُ الرمية نَفاذا وأنفذتُه أنا. وهو نافذٌ: ماضٍ في أمره" (ابن فارس (ت٣٩٥هـ)، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، صفحة ٤٥٨/٥)، وأصله الخروج من الشيء أو اختراقه، وقد ورد الفعل نَفَذ مرة واحدة في القرآن الكريم بمعنى الخروج والاختراق، قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ۚ لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ} الرحمن/٣٣، ولم يرد في كلام الله تعالى غيره. وممّا سبق يتّضح الفرق الشاسع بين الفعلين، من حيث الشكل والمعنى.

المستوى الصوتي (المماثلة):

المماثلة من الظواهر الصوتية القديمة التي التفت إليها اللغويون القدامى، ومثّلوا لها في كتاباتهم، فهي عندهم تعني المضارعة (الصايغ، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م، صفحة ٢٨٠)، والائتلاف (أبن جني(ت٣٩٢هـ)، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، صفحة ٤٢٨/٢)، لكنّ مصطلح المماثلة لم يرد في كتبهم، أمّا المحدثون، فقد ظهر عندهم مصطلح المماثلة، وحددوا أنواعها، وعُرفت المماثلة عندهم بتعريفات شتى، لكنها لا تختلف عمّا وضعه القدماء.

ومن أنواع المماثلة الواردة في آيات النّفاد هو الإدغام: وهو في اللغة "دخول شيء في مَدخَلٍ ما... قولهم أدغمتُ اللِّجام في فم الفرس، إذا أدخلته فيه. ومنه الإدغام في الحروف" (ابن فارس (ت٣٩٥هـ)، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، صفحة ٢٨٥/٢) وهو أن يلتقي صوتان أحدهما ساكن، والآخر متحرّك بدون فاصل بينهما (الموسوي، ٢٠٠٧م، صفحة ١٣٨).

والإدغام أنواع منها إدغام النون الساكنة والتنوين، أي دمج النون الساكنة أو التنوين مع الحرف الذي يليها من حروف كلمة (يرملون)، فيصبحان حرفا واحدا من جنس الحرف الثاني. ويُقسم هذا الإدغام إلى نوعين هما:

١) الإدغام بغنّة، والغنّة هي الصوت الرخيم الذي يخرج من الأنف (العبد، ٢٠١٠، صفحة ٨٦) فتكون هذه الغُنّة بمقدار حركتين، ولا دخل للسان فيها، وحروفه مجموعة في كلمة (ينمو) ويسمى كذلك بالإدغام الناقص، ولا يكون في كلمة واحدة، كقوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. فالغنّة تظهر في قوله تعالى أقلامٌ والبحر، إذ أدغم التنوين في كلمة (أقلامٌ) بالواو العاطفة في (والبحر) فأحدث ذلك إدغاما بغنّة، ونلحظ في هذا الإدغام مسافة زمنية تحصّلت من الغُنّة الملازمة للإدغام الناقص، توحي بكثرة الأقلام وامتدادها. وكذلك في قوله تعالى (أبحرٍ) إذ أدغم التنوين في الميم (ما) فأحدث ذلك أيضا إدغاما بغُنّة، وهذه الغُنّة بمدتها الزمنية أوحت بطول امتداد تلك الأبحر وكبر حجمها. ونلحظ أيضا في هذه الآيات المباركات إدغاما بغُنّة جاء من إدغام النون الساكنة مع النون في قوله تعالى: {إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ} إذ أدغمت نون (منْ) مع نون (نفاد)، فأحدث ذلك إدغاما بغُنّة، وهذا الإدغام دلّ على طول امتداد الرزق الإلهي لعباده المؤمنين، وهذا الامتداد تحصّلت دلالته من الغُنّة الملازمة له.

٢) الإدغام بغير غنّة، وهو الإدغام الذي لا تظهر فيه الغُنّة، وحروفه هي اللام والرّاء (أبو دقيقة، د.ت، صفحة ٦١)، وذلك نحو قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} فالإدغام جاء في كلمتي (مدادًا لكلمات) إذ أُدغم التنوين في مدادا مع اللام في كلمات فأحدث إدغاما بغير غُنّة، دلّ على عدم وجود انفصال بين مداد البحور وكلمات الله تعالى، فهذه البحور في حالة امدادها لكلمات الله تعالى، فكلماته لن تنفد.

الإقلاب: هو نوع آخر من المماثلة، ويعني "قلب النون الساكنة والتنوين عند ملاقاة الباء الموحَّد ميما مخفّفا خالصا وخفائها بغنّة" (توفيق، ١٩٧٥، صفحة ٢٨٣/١)

والعلّة في قلب النون الساكنة أو التنوين عند التقائهما مع الباء، هو أنّ النون صوتٌ أغن، يخرج من طرف اللسان، أمّا الباء فهو يخرج من انطباق الشّفتين؛ لذا جيء بحرف يجمع بين الغنّة وانطباق الشّفتين، ألا وهو (الميم)، الذي يحمل صفة الغنّة، ومخرجه بانطباق الشّفتين؛ وذلك للتخفيف. وقد ورد الإقلاب في الجار والمجرور (من بعده) في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

فاجتمعت النون الساكنة مع الباء، فنطقت: مم بعده، فحدث الإقلاب فيهما.

المستوى الصرفي:

المصادر:

هو اسمٌ يدل على الحدث مثل الفعل لكنّه مجرّدٌ من الزمان (الحديثي، ١٣٨٥-١٩٦٥، صفحة ٢٠٨)، والمصادر في الفعل الثلاثي المجرّد سماعية، أي أنّها لا تلزم وزنا معينا، فنجد للفعل منه أكثر من مصدر، وهذا ما جعل الكوفة تقول بأن الفعل هو الأصل والمصدر فرع، أمّا البصرة فإنّها ترى أنّ المصدر هو الأصل والفعل فرع منه. أمّا المصادر في الفعل الثلاثي المزيد، فهي قياسية. والمصادر التي ورد ذكرها في آيات النّفاد ثلاثة مصادر هي فِعَال، فَعَل، فَعَال، وهي ما بين السماعي والقياسي، وفيما يأتي سنبيّن أثر هذه المصادر في آيات النّفاد:

مَدَدَ، مِدَاد: على وزن فَعَل وفِعَال وهو مصدرٌ سماعي في فَعَل المتعدي (السامرائي، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، صفحة ٢٩)، نحو قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} فقوله تعالى (مَدَدا) مصدرٌ للفعل المضعّف مدَّ يمُدُّ، ويدلّ على "جر شيء في طول، واتّصال شيء بشيء في استطالة. تقول: مَدَدْتُ الشيء أمدُّه مَدًّا، ودلالته الزيادة" ما كان بطريق الزيادة يقال فيه: يمدّه مدًّا، ومنه قوله تعالى: {اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} البقرة/١٥، وقوله: {كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا} مريم/٧٩، فالمعنى هنا الزيادة اي لو جئنا بمثل هذا البحر ببحار كثيرة. (العسكري، د.ت، صفحة ٧١)

وكذلك نجد (مِدَادا) على وزن فِعَال "ويصاغ هذا الوزن للدلالة على قرب شيء من شيء" كالصِّراف والضِّراب والنِّكاح: هو مصدرٌ للثلاثي المتعدي غالبا، من الفعل مَدَّ يَمُدُّ المتعدي، والمقصود به هنا (الحبر) "يقول: مِدادا يُكتب به... مَدَدٌ لكم، وقال بعضهم (مِدادا) يكتب به ويعني به (المداد): أنّه مَدَدٌ للمِداد يُمَدُّ به ليكون معه". (المجاشعي(ت٢١٥هـ)، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، صفحة ٤٣٦/٢)

فبيّن سبحانه وتعالى عجائب قدرته، في أنّ علمه ليس له نهاية، ولا يستطيع أحدٌ أن يبلغَ من علمه مهما أُوتي من العلم، فهذه الآية نزلت بعد حجاج اليهود للنبيّ الأكرم في قوله تعالى:} وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} الإسراء/٨٥، فقالت اليهود "كيف وقد أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا. فنزلت" {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي}" (الواحدي(ت٤٦٨هـ)، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م، صفحة ٢٩٨) فالعلم الذي نزل بالتوراة قليل لا يُقاس بعلم الله تعالى وكلماته.

نَفَاد: قال تعالى:} إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَاد} فالمصدر نَفَاد من الفعل اللازم فَعِل يفعَل نَفِد ينفَدُ، وله مصدران، سماعي (فَعَال) وقياسي (فَعَلْ) نحو نَفِد يَنْفَدُ نَفَادا ونَفَدا "النون والفاء والدال أصل صحيح يدلّ على انقطاع شيء وفنائه ونَفِد الشيئ يَنْفَدُ نَفَادا" (ابن فارس (ت٣٩٥هـ)، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، صفحة ٤٥٨/٥) و"نَفِدَ الشيء... يَنْفَدُ نَفأدا ونَفَدا محرَّكة..." (الزبيدي(١٢٠٥هـ)، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، صفحة ٢٢٩/٩) لكنّ الاستعمال القرآني آثر نَفَاد على نَفَدْ؛ لما في صوت الألف من امتداد صوتي، دلّ على الكثرة والاستطالة والامتداد؛ ذلك أنّ "في مقدور صوت المدّ أن يستمر أيّة مدّة ممكنة لكونه يحدث في حقيقة أمره من اتخاذ اللسان والشّفتين وضعا خاصا... في الوقت الذي يستمر فيه الهواء بالخروج من الفم استمرارا حرّا" (أنيس، ١٩٩٢، صفحة ٣٧) فالمؤمنون في نعيم الجنان، ورزقهم لا ينقطع أبدا ولا يفنى.

فنلاحظ تكرار صوت المدّ الألف في قوله (لرزقنا)، (ما)، (نفاد) تناسب دلاليا، مع استمرار وامتداد العطاء الجاري من الله تعالى لعباده الذين اتقوا في جنّاته "لأنّه على سبيل الدوام... وقيل إنّه ليس لشيئ في الجنّة نَفَاد، ما أُكل من ثمارها خلف مكانه مثله، وما أُكل من حيوانها وطيرها عاد مكانه حيًّا". (الطبرسي، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، صفحة ٢٨٣/٨)

الجموع: من أنواع الجموع الواردة في آيات النّفاد، جمع التكسير وجمع المؤنّث السالم، وقد وردا في قوله تعالى: {ولَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} فنجد بناء أفْعَال وأفْعُل من جموع التكسير في لفظتي (أقلام وأبحُر) وجمع المؤنّث في لفظة (كلمات)، فأراد سبحانه وتعالى أنْ يُظهر سعة قدرته وجلالة عظمته وعلمه الكثير الذي ليس له نهاية، فضرب مثلا بأنّه لو كانت كلُّ أشجار الأرض قد تحوّلت إلى أقلام، والبحر مدادٌ (حبر) لكلماته، ويمدّ هذا البحر سبعة أبحر، لَنَفِدت هذه الأبحر قبل أنْ تنفَدَ كلماتُ الله تعالى (الزمخشري(ت٥٣٨هـ)، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، صفحة ٥٠٤/٣). وهذه الجموع عادة تدلّ على الجمع القليل؛ لذا قد يسأل سائل: لِمَ استعمل النّص القرآني هذه الجموع في موضعٍ يُراد به الكثرة؟ نجيبه بأنّ من عادة العرب الاستغناء بالجمع القليل عن الجمع الكثير والعكس صحيح، بدليل قوله تعالى: {وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ} سبأ/٣٧، وغرف الجنّة لا تُحصى ولا تُعدّ، لكنّه استعمل جمع المؤنّث السالم بدل الجمع فُعَل، ففي هذه الآية الكريمة دليل على صحّة ما ذهب إليه النحويون المحدثون من إنكار ما يُسمى بجمع القلّة والكثرة.

المستوى النحوي:

حوت آيات النَّفاد الجملة الاسمية والفعلية على حدٍّ سواء، والجملة هي "الصورة اللفظية الصغرى للكلام المفيد في أيّة لغة من اللغات، والجملة التّامة التي تعبّر عن أبسط الصور الذهنية التامة التي يصحّ السكوت عليها" (المخزومي، ٢٠٠٥م، صفحة ٣٥) والجملة العربية تتألف من ركنين رئيسين هما المسند، ويكون اسما أو فعلا، والمسند إليه ولا يكون إلاّ اسما (السامرائي، معاني النحو ، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، صفحة ٣٤/١).

الجملة الاسميّة: وهي الجملة التي تبدأ بالاسم، ويخبر عنه باسم أو فعل نحو قولنا: زيدٌ أخوك وزيدٌ يقوم، والجملة الفعلية هي الجملة التي تبدأ بفعل، أسند إليه اسم أو ما أوِّل باسم، نحو قولنا: يقوم زيدٌ ونجحَ المجتهدُ، والفعل هو ما دلّ على الحدث المقترن بزمن، وللتركيب الجملي دلالات مختلفة في آيات النّفاد:

المبتدأ المسند إليه (معرفة) + الخبر المسند (معرفة):

قال تعالى: {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ} فالاسم الموصول (ما) بمعنى الذي مبتدأ، و(باق) خبره مرفوع بضمة مقدّرة على الياء المحذوفة، فهو اسم فاعل من الثلاثي (بقي) وحذفت الياء لمناسبة التنوين؛ فهو اسم منقوص.

وهنا يتبادر إلى الأذهان سؤال: ماذا لو استعمل النصّ القرآني يبقى بدلا من باق، ما الدلالة المستوحاة من اسم الفاعل؟، بل لماذا لم يأت بصيغة الفعل المضارع مثل الجملة السابقة لها والمعطوفة عليها {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ}، فهي بنفس التركيب متكوّنة من اسم موصول في محل رفع مبتدأ، والجملة الفعلية المضارعة خبره؟ لِمَ لم يقل وما عند الله يبقى؟

نجيب – والله أعلم – إنَّ بين التركيبين باق ويبقى فارق دلالي كبير جدا، فاسم الفاعل (باق) الدال على الماضي، دلَّ على الثبوت أيضا "ثبوت الوصف في الزمن الماضي ودوامه فيه، بخلاف الفعل المضارع (يبقى أو ينفد) الذي يدل على الحال لا على ثبوته ودوامه" (السامرائي، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، صفحة ٥١) لكن جاء التركيب على هذا الشكل ليدلّ على تقوية الحكم (حسان، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، صفحة ٢٠٣)، بأنّ كلَّ ما عند البشر من ماديّات ومعنويّات تنفد، ولا يبقى إلاّ عطاء الله الواحد القهّار.

المبتدأ (معرفة) + الخبر (جملة فعلية مثبتة):

قال تعالى: {وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُر} فجاء المبتدأ (البحر) معرفة، وخبره (يمدُّه) جملة فعلية مثبتة مضارعة ومفعوله الضمير المقدّم وجوبا على فاعله (سبعة أبحر)، فنلاحظ بروز دلالة تقوية الحكم، وهي قوة العلاقة في الإسناد بين المسند والمسند إليه (حسان، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، صفحة ٢٠٣)، أي إثبات الحدث الذي يحمله المسند إلى المسند إليه، بشكل لا يخالطه الريب؛ ليزيل ما بنفس المتلقي من الشّك والتردد.

المبتدأ اسم ظاهر + الخبر جار ومجرور:

ورد هذا النمط في قوله تعالى:} إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ{، فأكّد سبحانه وتعالى أنَّ رزق العباد في جنّاته ليس له نهاية، فهو عطاء مستمر ليس لهم فقط؛ لذا استعمل النّص القرآني اللام في (له)، لتحديد معنى التملّك الحاصل من معنى اللام (المرادي(ت٧٤٩هـ)، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، صفحة ٩٦)، مع معنى التأكيد المتحصّل من تقديم الجار الزائد على المبتدأ (نَفاد) لتأكيد المعنى، فيكون (من نَفاد) مجرور لفظا مرفوع محلّا أي: ما نَفاد لرزقنا.

الفعل اللازم + الفاعل:

جاء هذا النمط في قوله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} فالفعل الماضي (نَفِدَ) جاء متّصلا باللام الواقعة في جواب الشرط (لو) وفاعله البحر، وكذلك الفعل (تَنْفَدَ) المنصوب بأن الناصبة المصدرية، والمؤول بمصدر تقديره: نَفَاد والمجرور بإضافة (قبل)، وفاعله (كلماتُ) والكلمات بمعنى "فكل معلوم يمكن أن يخبر به، فإذا أخبر به صار كلمة، ولذلك يطلق على المعلومات كلمات" (عاشور، ١٩٨٤، صفحة ٥٢/١٦)، واللام في (كلمات) هي لام العلّة، أي لأجل كلمات ربّي، ففي الكلام حذفٌ للمضاف (عاشور، ١٩٨٤، صفحة ٥٣/١٦)، وكأنّ الكلام: لكتابة كلمات ربّي، فالجملتان الفعليتان هنا، دلّتا على الاستمرار والتّجدد، أي لو نفدت البحار فلن تنفد كلمات الله لأنّها متجدّدة.

نواسخ الجملة الاسمية:

هناك بعض الألفاظ، التي إنْ ارتبطت بالجملة الاسمية أعطتها دلالة تختلف عن دلالتها في حال انفصلت عنها، ومن ذلك في آيات النَّفاد:

كان: قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي{، إذ دخلت (كان) الدالة على الزمن دون الحدث، وهذا سبب تسميتها بالفعل النّاقص؛ لأنّها فضلا عن دلالتها على الزمن، فهي لا تكتفي بمرفوعها (قنبر(ت١٨٠هـ)، ١٩٨٨م، صفحة ٤٥/١) فدخلت (كان) على المسند والمسند إليه، فأحدثت فيهما تغيرا تركيبيّا ودلاليّا، فبعد أن كان (البحرُ مدادٌ)، برفع المسند صار (مدادا) بنصب الخبر، هذا من الجانب التركيبي، أمّا من الجانب الدّلالي، فقد جاءت (كان) هنا بمعنى صار، أي: لو صار البحر مدادا "يجوز في كان... أنْ تستعمل بمعنى صار كقوله تعالى: {وبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنبَثًّا} الواقعة ٥-٦" (هشام (ت٧٦١هـ)، ١٣٨٣هـ، الصفحات ١٣٣-١٣٤)

وكذلك قوله تعالى:} وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وردت كان الناقصة هنا مع اسمها الضمير المتّصل الواو، وخبرها الجملة الفعلية المضارعة (يعملون)، للدلالة على الزمن الماضي وهذا هو الأصل فيها.

إنَّ: قال تعالى:} إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا} نجد في هذه الآية أنّها تميّزت بكثرة المؤكدات فيها، إذ تصدّرت (إنَّ) المؤكّدة ولحقتها اللام زيادة في التوكيد ن قال ابن يعيش "إنّا إذا قلنا: زيد قائم، فقد أخبرنا بأنَّه قائم لا غير، وإذا قلنا: إنَّ زيدا قائم، فقد أخبرنا عنه بالقيام مؤكدا، كأنَّه في حكم المكرر، نحو: زيد قائم، زيد قائم، فإن أتيت باللام كان المكرر ثلاثا" (النحوي (ت٦٤٣هـ)، د.ت، صفحة ٦٣/٨)، فالبارئ عزّ وجلّ يؤكّد حال المؤمنين يوم القيامة، وهم في جنّاته، بأنَّ ما يأتيهم من نعيم مغدق وعطاء مستمر، هو رزقهم الموعود وما له من فناء (بكر، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، صفحة ٤٢٢/١٢). كذلك قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{.

إذ وردت إنَّ مرتين، مرّة بفتح همزتها في بداية الآية، فجاء اسم إنَّ اسما موصولا في (لو أنَّ ما في الأرض) والمصدر المؤول من أنّ وما دخلت عليه فاعل لفعل محذوف تقديره: لو ثبت، وخبرها لفظة (أقلام)، وأخرى بكسرها (إنَّ الله) وخبرها المتعدد (عزيز حكيم).

الخاتمة:

بعد قراءة الآيات المباركات في معنى النّفاد في القرآن الكريم، توصل البحث إلى نتائج أهمّها، إنّ معنى النّفاذ يختلف اختلافا كبيرا عن معنى النّفاد، والنّاس تستعملهما بمعنى واحد، فهما من الأخطاء الشائعة، نظرا لقرب مخرجيهما من رأس اللسان مع الثّنايا العليا، إلاّ أنّ الدال مجهور شديد، والذال مجهور رخو.

بيّن البحث بعض الظواهر الصوتية في هذه الآيات الكريمات، نحو المماثلة بنوعيها الإدغام بغنّة وبغير غنّة، وما أحدثته بمدّتها الزمنية الطويلة، من دلالة الامتداد والطول، وكذلك ظاهرة الإقلاب. استعمل النّص القرآني، بعض المصادر التي أعطت دلالة الزيادة وامتداد العطاء الإلهي لعباده الذين اتقوا في جنّاته. أما في المستوى النحوي، فقد لعبت الجمل الاسمية بأنماطها وكذلك الفعلية، دورا مهما في إيضاح دلالة آيات النّفاذ على استمرار علم الله تعالى وعطائه الذي لا يفنى.

المصادر

- ابن فارس (ت٣٩٥هـ). (١٣٩٩هـ-١٩٧٩م). معجم مقاييس اللغة. (تحقيق: عبد السلام محمد هارون، المحرر) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- أبو الحسن المجاشعي(ت٢١٥هـ). (١٤١١هـ-١٩٩٠م). معاني القرآن للأخفش (المجلد الأول). (تحقيق: د. هدى محمود قراعة، المحرر) القاهرة: مكتبة الخانجي.
- أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي(ت٤٦٨هـ). (١٤١٢هـ-١٩٩٢م). أسباب النزول (المجلد الثانية). (تخريج وتدقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، المحرر) الدمام: دار الإصلاح.
- أبو الفتح عثمان ابن جني(ت٣٩٢هـ). (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م). سرّ صناعة الاعراب (المجلد الأول). بيروت-لبنان: دار الكتب العلمية.
- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(ت١٨٠هـ). (١٩٨٨م). كتاب سيبويه (المجلد الثالثة). (تحقيق: عبد السلام محمد هارون، المحرر) القاهرة: مكتبة الخانجي .

- أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي. (١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م). مجمع البيان في تفسير القرآن (المجلد الأول). بيروت-لبنان: دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع.
- أبو محمد عبد الله جمال الدين بن هشام (ت٧٦١هـ). (١٣٨٣هـ). قطر الندى وبل الصدى (المجلد الحادية عشر). (تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المحرر) القاهرة.
- الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور. (١٩٨٤). تفسير التحرير والتنوير. الدار التونسية للنشر.
- الحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري. (د.ت). معجم الفروق اللغوية . (تحقيق: محمد إبراهيم سليم، المحرر) دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع.
- الحسن بن قاسم المرادي(ت٧٤٩هـ). (١٤١٣هـ-١٩٩٢م). الجنى الداني في حروف المعاني (المجلد الأول). (تحقيق: د. فخر الدين قباوة ، الاستاذ محمد نديم فاضل، المحرر) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- العلامة جار الله الزمخشري(ت٥٣٨هـ). (١٤١٨هـ-١٩٩٨م). الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل (المجلد الأول). (تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوّض، المحرر) الرياض: مكتبة العبيكان.
- القرطبي(ت٦٧١هـ)، أبو عبد الله بن أبي بكر. (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م). الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان (المجلد الأول). (تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي وآخرون، المحرر) بيروت،لبنان: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر.
- الوليد فرج توفيق. (١٩٧٥). قواعد التلاوة وعلم التجويد. بغداد: دار الرسالة.
- د. إبراهيم أنيس. (١٩٩٢). الأصوات اللغوية. مكتبة الأنجلو المصرية.
- د. تمّام حسان. (١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م). اللغة العربية معناها ومبناها (المجلد الخامسة). عالم الكتب.
- د. فاضل صالح السامرائي. (١٤٠١هـ-١٩٨١م). معاني الأبنية (المجلد الأول). ساعدت جامعة بغداد على نشره.
- د. فاضل صالح السامرائي. (١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م). معاني النحو (المجلد الثانية). شركة العاتك للطباعة والنشر والتوزيع.
- د. مهدي المخزومي. (٢٠٠٥م). في النحو العربي نقد وتوجيه (المجلد الأول). بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- د.خديجة عبد الرازق الحديثي. (١٣٨٥-١٩٦٥). أبنية الصرف في كتاب سيبويه (المجلد الأول). بغداد: منشورات مكتبة النهضة.
- عبدالعزيز الصايغ. (١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م). المصطلح الصوتي في الدراسات العربية. دمشق: دار الفكر ، الإعادة الأولى.
- فريال زكريا العبد. (٢٠١٠). الميزان في أحكام تجويد القرآن. القاهرة: دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع.
- محمد العدناني. (١٩٨٥م). معجم الأخطاء الشائعة (المجلد الثانية). بيروت: مكتبة لبنان.
- محمد مرتضى الزبيدي(١٢٠٥هـ). (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م). تاج العروس من جواهر القاموس. (تحقيق: جماعة من المختصين، المحرر) وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت.
- محمود أبو دقيقة. (د.ت). القول السديد في علم التجويد. (تحقيق: عوض الله جاد حجازي، المحرر)
- مناف مهدي الموسوي. (٢٠٠٧م). علم الأصوات العربية (المجلد الثالثة). بغداد: دار الكتب العلمية.
- موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت٦٤٣هـ). (د.ت). شرح المفصل. بيروت: عالم الكتب.